أسطورة ياسر عرفات

وليم نصّار*

أبو عمار الذي عرفته في البدايات**

البداية

في سنة ١٩٦٥، بعدما يقارب العام على قيام منظمة التحرير الفلسطينية، بدأت العمليات الفدائية الفلسطينية، واعتقدنا بسذاجة أن الشقيري، رئيس المنظمة آنذاك، قد فعلها، وبدأ حرب التحرير. لكن بعد أيام بدأت حملة تحريض ضد هذه العمليات، شارك فيها الشقيري نفسه، فخاب أملنا بالرجل، وتعلقت أفئدتنا بأولئك الرجال الذين تحدّوا الواقع، وأخذوا على عاتقهم أن يبدأوا العمل من أجل تحرير فلسطين. وسعيت مع مَن سعى للبحث عن هؤلاء أملاً بالانضمام إليهم، بعد اليأس من إمكان تحرك الأحزاب العربية (التي كنا قد انتمينا إليها) في أي عمل للتحرير.

التحقت بحركة "فتح" في سنة ١٩٦٥، عندما كانت لا تزال مجهولة القيادة وقاعدتها مختفية تحت الأرض، ولم يكن معروفاً آنذاك عن "فتح" سوى أنها مجموعة من الفدائيين تقوم بعمليات فدائية في الوطن المحتل عبر جناح عسكري يدعى "قوات العاصفة"؛ ففي ربيع سنة ١٩٦٥، عُقدت ندوة فلسطين العالمية التي نظمها الاتحاد العام لطلبة فلسطين في القاهرة، وكان ضمن برنامج الندوة زيارة الضفة الغربية للتعرف إلى أوضاع اللاجئين والقرى الحدودية في ما تبقّى من فلسطين. وفي أثناء وجود أعضاء الندوة في القدس تعرفت إلى هايل عبد الحميد (أبو الهول)، وعرفت أنه من "قوات العاصفة"، فتقرّبت منه حتى ألحقني بتنظيم "فتح"، لكنني بقيت بعيداً عن الاتصال بالتنظيم إلى أن التقيت أبو الهول ثانية في بيروت في نهايات سنة ١٩٦٥ عندما كان يشرف على انتخابات فرع لبنان للاتحاد العام لطلبة فلسطين، فأعطاني

* مناضل فلسطيني.

** كتب نصار مقالته هذه في فلسطين في ١٩ / ٧ / ٢٠١٤.

رقم هاتف في دمشق، وطلب مني الاتصال به وأنا في طريقي إلى عمّان لتعزيز اتصالي بالقيادة.

فعلت ما طلبه مني أبو الهول في نهاية السنة وكنت في طريقي إلى عمّان في إجازة عيد الميلاد، فجاءت سيارة "خنفساء" [فولكسفاغن]، خرج منها رجل طويل ضخم الجثة يكاد لا يتسع له مقعد "الخنفساء"، وعرفت فيما بعد أنه "أبو صبري" أحد قادة "فتح"، ونقلني إلى مقر تحت الأرض في "زقاق الصخر" في دمشق، حيث عرّفني إلى شخص آخر هو "أبو جهاد" الذي كان أبو الهول قد طلب مني الاتصال به. ومنذ ذلك الوقت بقيت علاقتي مع أبو جهاد، وكان يحمّلني المنشورات والأوراق فأنقلها إلى بيروت، وبدأت بتنظيم بعض الشباب الذين أعرفهم، وأوزع عليهم هذه المنشورات.

وفي زيارة ثانية لدمشق ذهبت إلى مركز للتدريب تحت الأرض أيضاً في منطقة الأكراد، حيث تلقيت تدريبي الأول على المتفجرات. وعرفت من المدرب أن قائد "قوات العاصفة" اسمه "أبو عمار"، وكنت أظن حتى ذلك الوقت أن أبو جهاد هو ذلك القائد، وتمنيت التعرف إليه، وخصوصاً بعد الذي سمعته عنه من مثابرة في العمل وإخلاص للقضية ومشاركة في العمليات الفدائية. وفي أثناء وجودي في بيروت كان يتصل بي بين الحين والآخر "أبو علي إياد"، فيحضر لي مزيداً من النشرات والكتيبات، ويحدثني عن "فتح"، وعن أبو عمار. كان أبو علي إياد الفدائي الأول، وكان يأتي إلى بيروت حاملاً المنشورات في حقيبة، وسلاحه والمتفجرات في حقيبة أُخرى، فيعطيني حصتي منها ويوزع الباقي على خلايا أُخرى، ثم يتجه إلى الأرض المحتلة للقيام بعملية فدائية.

الهروب إلى دمشق

في إحدى زياراتي لدمشق مررت على مقر زقاق الصخر، فوجدت فيه بعض أفراد من الشرطة العسكرية السورية الذين منعوني من الدخول، لكنهم كانوا لطفاء، وطلبوا مني الاتصال بأم جهاد في بيتها في آخر منطقة الأكراد. فتوجهت إلى هناك، وعرفت منها أن السلطة السورية استولت على مقارّنا بعد حادث مقتل ضابط فلسطيني في الجيش السوري كان يعمل معنا اسمه يوسف عرابي، وأن هذا الحادث وقع في أثناء محاولة يوسف عرابي السيطرة على مقارّ "فتح" وعزل قيادتها لضمها إلى حزب البعث، فاصطدم في أحد البيوت بعدد من الفدائيين، وأطلق عليه أحدهم النار فأرداه قتيلاً هو والملازم محمد حشمة مسؤول التدريب في "فتح" الذي تصدى ليوسف عرابي بجسده. وفي إثر ذلك استولت السلطة السورية على مقارّ "فتح" وزجّت بقيادتها في السجن، وكان بينهم أبو عمار وأبو جهاد وأبو صبري، لكني عرفت أن أبو علي إياد ظل طليقاً وأنه سيأتي لمقابلتي. وفعلاً جاء بعد فترة وجيزة، وسألني ما إذا كان في إمكاننا تحريك مجموعات من لبنان، فأجبته بالإيجاب، إذ كنّا قد أعددنا مجموعة من مخيم عين الحلوة للاستعداد للعمليات الفدائية.

في زيارة ثانية أعطاني أبو علي إياد بعض المال وطلب مني استئجار شقة تكون ملائمة للتدريب والتخزين، ففعلت ذلك، واستأجرت شقة في منطقة الحدث، وانتظرت وصول السلاح، ولمّا تأخر وصوله، عدت إلى دمشق، وتوجهت إلى بيت أبو جهاد لأجد هذا الأخير هناك، إذ

كان قد خرج من السجن عندما توفي ابنه الصغير بعدما وقع من الطبقة الثانية، وكان أبو علي إياد دخل السجن بدلاً منه كرهينة إلى أن يعود. بدأ أبو جهاد على الفور بتوجيه العمل، لأنه كان أدرى بالتفاصيل من أبو علي إياد، وشرحت له ما اتفقت عليه مع أبو علي، فوعد بوصول السلاح خلال أيام. وفعلاً وصل السلاح إلى قرية سعدنايل في البقاع، لكن الحقائب التي حُمل بها كانت قد تمزقت، وأخبرني الرسول أنه بحاجة إلى حقائب جديدة، فأعطيتهم حقائبي التي كانت تحمل اسمي. وللأسف ألقت الشرطة اللبنانية القبض على المجموعة التي كانت تنقل هذا السلاح إلى صيدا عبر جزين، فاضطررت إلى الهرب إلى دمشق.

وفي دمشق عرفت أن أبو جهاد انتقل إلى بيت جديد، وأن الحكومة السورية أطلقت كل مَن اعتقلتهم من القيادة، فتوجهت إلى منزل أبو جهاد حيث وجدت عدداً كبيراً من الأشخاص يتناولون طعام الغداء، وعرفت أنني أجلس مع العديد من قادة "فتح"، وتعرفت إلى أبو عمار الذي أخذ يسألني عن سبب القبض على المجموعة التي كانت تحمل السلاح، وعن الأخطاء التي حدثت، وعمّا سأفعله بعد ذلك. وعرفت بين الحضور كل من صلاح خلف (أبو إياد) وفاروق القدومي (أبو اللطف) اللذين كانا قد جاءا إلى دمشق للتوسط لدى الحكومة السورية للإفراج عن أبو عمار ورفاقه. وكانت تلك الجلسة بداية معرفتي الفعلية بأبو عمار، وكنت أتصوره ضخماً عريض الكتفين مثل أبو صبري، وإذا بي أمام شخص قصير أصلع لطيف لا ينفك يستفسر ويسأل ويبدي الملاحظات حتى وهو يأكل.

في دمشق

طلب مني أبو جهاد الإقامة موقتاً في مركز التدريب الذي كان يقع خلف بيته، فذهبت إلى هناك ونظفت المكان كي يكون مكان إقامتي. وفي أحد الأيام جاءني موسى عرفات (ابن أخت أبو عمار) والحاج إسماعيل جبر، وسألاني إن كنت أرغب في زيارة أبو عمار في سجنه. وعرفت منهم أن القيادة وضعته في الحجز لمخالفته التعليمات التي كانت قد صدرت بضم جماعة أحمد جبريل إلى "فتح"، غير أن أبو عمار شكك في نيات أحمد جبريل ورفض التعاون معه، وكان هذا أحد الأسباب لإقدام يوسف عرابي على محاولته السيطرة على مقار "فتح"، إذ كان هناك اتفاق بينه وبين أحمد جبريل على السيطرة على "فتح" من الداخل لمصلحة حزب البعث.

ذهبنا إلى أبو عمار في سجنه، وهو عبارة عن شقة أرضية في الشارع نفسه الذي كان فيه مقر التدريب في منطقة الأكراد. وكانت الشقة فارغة عدا فراش على الأرض مع بعض الأغطية والكراسي القديمة والأواني في المطبخ. وكان أبو عمار يجلس على الفراش والصحف متناثرة من حوله، وخصوصاً المجلات السياسية اللبنانية. جلسنا معه على الأرض على بعض الأغطية، فأخذ يشتم القيادة التي لم تتفهم موقفه من البداية، الأمر الذي أدى إلى الاشتباك الذي أودى بحياة يوسف عرابي ومحمد حشمة. وبعد قليل أخذ يقرأ من إحدى المجلات، وكانت المقالة عبارة عن مقابلة مع رجل كبير في السن من البقاع اللبناني، كان يتحدث متفاخراً كيف أنه سهّل للقوات الفرنسية دخول لبنان في بداية الانتداب الفرنسي. وعلّق أبو عمار على ذلك بقوله إنه حتى الخيانة تدعو صاحبها إلى الافتخار أحياناً، وبدلاً

من أن يطلقوا النار عليه يجرون المقابلات معه، كأن ما فعله شيء يستحق الفخر والنشر!

بعد أيام طلب مني أبو جهاد الانتقال إلى مركز زقاق الصخر لتنظيفه لأن في نيتهم تسليمه إلى أصحابه. فذهبت إلى هناك، ونظفت المكان، ووضبت المخزن الذي كان مملوءاً بالأسلحة والمتفجرات، ذلك بأن المركز كان نقطة تجمّع المجموعات الفدائية وانطلاقها إلى عملياتها في الأرض المحتلة. وبينما أنا هناك جاء أبو علي إياد وبدأ يُعدّ التجهيزات لمجموعة سيقودها كي تنطلق في عملية جديدة في الأرض المحتلة، ثم لحقه بعض أفراد المجموعة من الذين كنت أعرفهم، وبينهم الحاج إسماعيل جبر. وقبل أن تتحرك المجموعة فوجئنا بحضور أبو عمار الذي رفض المكوث في سجنه بينما آخرون يعملون ويتأهبون للقيام بعملية فدائية، وأصر على الانضمام إلى المجموعة، وخاطب أبو علي قائلاً أنه لن يكون قائد المجموعة، بل إن أبو علي سيظل هو القائد، وسيعمل هو بإمرته. واعترض أبو علي إياد على ذلك، خوفاً على أبو عمار الذي كانت الحركة بحاجة إليه لاستمرار العمل بعد خروجه من السجن، لكن أبو عمار أصر على موقفه، فكان له ما شاء.

توجهت المجموعة إلى الأرض المحتلة لتضرب مستعمرة "مرغليوت" (أقيمت على أراضي قرية هونين المدمرة في شمال فلسطين المحتلة)، وبعد أن أتمت مهمتها عادت عن طريق لبنان، لتجد أن الجيش اللبناني على أعلى درجات الاستنفار والانتشار على الحدود، فلم يكن أمامها من خيار سوى الاستسلام للجيش اللبناني، إذ لم يعد في إمكان أفرادها العودة إلى فلسطين المحتلة. وأُدخلوا إلى السجن العسكري، وبدأ مسؤول الاستخبارات العسكرية اللبنانية، والذي كان يُدعى فريد أبو مرعي، يحقق معهم، وأخذ يسألهم عن أبو عمار وهل هو معهم، إذ لم يكن أبو عمار معروفاً لديهم بالشكل، إلاّ إنه كان معروفاً بسمعته. وأفهمهم أبو علي إياد أنه هو قائد المجموعة، وأن كل مَن معه فدائيون من سورية. وخلال التحقيق مع أبو عمار شرع يتحدث باللهجة الجزائرية التي كان يتقنها، وادعى أنه من ريف اللاذقية. وزُجت المجموعة في السجن إلى أن هددت "فتح" بأنها ستردّ بعنف إذا لم يُطلق أفرادها. وتوسط الحاج أمين الحسيني في حينه لدى السلطات اللبنانية للإفراج عن المجموعة بدلاً من انتظار ردّ عنيف من "قوات العاصفة"، فأفرجت السلطات اللبنانية عنهم بعد اعتقال دام نحو شهرين، وقيل لي لاحقاً إن أبو عمار توجه إلى فريد أبو مرعي لحظة الإفراج عنه وقال له: "أنا ياسر عرفات".

عندما أُفرج عن المجموعة كنت في ألمانيا، إذ كان أبو جهاد قد أرسلني إلى هناك لتدريب شباب "فتح" على السلاح، وزودني أبو صبري ببعض المتفجرات للتدريب. ومكثت هناك ستة أشهر إلى أن اكتُشف أمر عملية التدريب، فبدأت الملاحقات التي شارك فيها استخبارات أكثر من دولة. وعندما فشلوا في التعرف إلى هوية القائمين على الأمر بدأوا بطرد كل مَن انتهت إقامتهم، وكنت أحدهم، فتوجهت إلى إسبانيا، ومن هناك أرسلت تقريراً إلى القيادة في دمشق بشأن ما جرى، وأرسلت إليها رقم هاتف ورقم صندوق بريد للاتصال بي. وبعد فترة وجيزة اتصل بي أبو عمار، وكان في زيارة للجزائر، كي يطمئن عليّ ويسألني إن كنت بحاجة إلى أي شيء بعد أن عرف أنني اضطررت إلى مغادرة ألمانيا فجأة. طمأنته أنني بخير ولا أحتاج إلاّ إلى معرفة أخبارهم، فأعطاني رقم هاتف في الجزائر لأتصل به عند الضرورة، وكان هذا هاتف محمد أبو ميزر الذي كان مسؤول "فتح" في الجزائر آنذاك.

الحرب

عندما بدأت حرب ١٩٦٧ كنت في إسبانيا، وأردت العودة من أجل المشاركة في القتال، إلاّ إن إمكاناتي كانت محدودة، فاتصلت بمحمد أبو ميزر الذي أفادني بأن الجزائر فتحت معسكراً للتدريب لتأهيل الشبان الفلسطينيين الذين يريدون الذهاب إلى الجبهة. اتجهت إلى الجزائر كي أستقل من هناك طائرة إلى سورية، لكن الحرب انتهت قبل أن أرى أي استعداد للتحرك إلى الجبهة. وفي هذه الأثناء جاء أبو اللطف إلى الجزائر، وأخبرني أن أبو عمار ينتظرني في دمشق، فتوجهت إلى دمشق مع الأخ يحيى عاشور (حمدان). وصلنا ليلاً، ومن هناك انتقلنا إلى بيت في منطقة الشعلان يُعرف بالمركز ٣٦، وعرفنا أنه بيت أبو عمار، وهو في الوقت نفسه مقر عمل الحركة الدائم. والتقينا بأبو عمار الذي احتضننا واستفسر عن أحوالنا، ثم اصطحبنا لتناول ساندويشات شاورما في مطعم قريب. وعندما عدنا كان أبو جهاد قد حضر، فاستقبلنا هو الآخر بحرارة، وبلّغني أنني مرشح للذهاب إلى الصين في دورة "فتح" الأولى هناك. وفي انتظار أن يحين موعد سفري، انتقلت إلى معسكر الهامة للإقامة والتدريب، فكنت أدرب الشبان القادمين من الأرض المحتلة على استعمال المتفجرات، وأحياناً أتولى تدريب مجموعات صغيرة على استعمال السلاح في دورات سريعة للتوجه إلى الوطن المحتل.

كان أبو عمار يأتي صباح كل يوم فيشرف على التدريبات، ويحرك الدوريات من الشباب الذين أنهوا تدريبهم، ويستقبل الدوريات العائدة من الوطن المحتل بعد أن تكون قد نقلت السلاح إلى هناك، كما كان يرسل الدوريات إلى هضبة الجولان لجمع السلاح الذي تركه الجيش السوري هناك بعد الهزيمة، وكان هذا مصدرنا الأساسي للأسلحة والمتفجرات التي كان يحملها أفراد الدوريات العائدون إلى الأرض المحتلة. كان أبو عمار لا يتوقف عن الحركة ولا يستريح حتى المساء؛ يجتمع بهذا وذاك، ويعطي تعليماته إلى هذه المجموعة أو تلك، ويؤمّن تحرك هذه الدورية أو تلك، أو يشرف على التدريب مباشرة، وعندما ينهي هذا كله يجتمع بأبو جهاد الذي كان يعاونه في هذه الأمور كافة. بعد مدة حان موعد ذهابي إلى الصين، وكنت على رأس المجموعة الثالثة، إذ سبقتنا مجموعتان كي لا نذهب كلنا دفعة واحدة، وكان يرئس المجموعة الأولى أبو صبري (وهو قائد الدورة)، والثانية يحيى عاشور. وبعد أشهر من التدريب النظري والعملي، جاءتنا رسالة من أبو عمار تفيد بأنه بحاجة إلى مجموعة من الفدائيين القدامى بيننا من أجل التحرك الفوري إلى الأرض المحتلة، فتوجهت مجموعة يرئسها أبو صبري ومعه ستة آخرون وفق طلب أبو عمار.

العودة من الصين

بعد أسبوع أنهينا الدورة فتوجهنا إلى دمشق، ونُقلنا فوراً إلى بيت في ريف دمشق عُرف بمركز ٣٤ في قرية حمورية، حيث مكثنا أياماً لم يسأل فيها أحد عنّا، فتراخينا وكنا نستلقي في الشمس، وكان ذلك في أواخر الخريف. وبينما نحن على هذه الحالة أطل علينا أبو عمار وبرفقته أبو صبري، وعندما رآنا نستجم ولا نضع حراسة أو نهتم للنواحي الأمنية، بدأ يوبخنا، ثم تركنا وعاد إلى دمشق من دون أن يقول لنا ماذا سنفعل. وفي أحد الأيام جاء أبو صبري وطلب مني مرافقته، فتوجهنا إلى مطار المزة العسكري، حيث كانت طائرة مصرية

محملة بالسلاح تنتظر أن نفرغها. وبعد التفريغ نقلنا الأسلحة إلى المركز ٣٤، وعملنا على تنظيفها. وكان أبو عمار يأتي بين الحين والآخر كي يستلم دفعة من السلاح المنظف ويتوجه به إلى الهامة التي كانت المعسكر الوحيد الذي يحق لنا العمل فيه في سورية لتجميع المقاتلين ونقلهم إلى الداخل.

بعد أن بدأنا نمل من الإقامة في المركز ٣٤، توجهت أنا إلى الهامة لأشارك في التدريب وفي تنظيم المعسكر. وبعد أيام طُلب منا التوجه إلى بيت أبو جهاد لأن القيادة تود أن تجتمع بنا. وكنّا قد علمنا قبل ذلك أن أغلبية قواعدنا في الداخل قد ضُربت، وأن أبو عمار اضطر إلى الخروج من الأرض المحتلة نتيجة الضغط، ولذا طلب عودة أبو صبري ومجموعة من الفدائيين القدامى في الدورة الذين كانوا قد تحركوا إلى الداخل لتعزيز العمل هناك، وكانوا بدورهم قد اصطدموا بالعدو في قرية بيت فوريك قرب نابلس، فعادوا أدراجهم، ووضع أبو صبري تقريراً فحواه أن التمركز في الداخل أصبح صعباً جداً، وأن علينا البحث عن استراتيجيا جديدة، واقترح استراتيجيا خط المواجهة من الأردن، القائمة على تحريك الدوريات وتعزيز العمل في الداخل من دون أن يكون لهذا العمل قواعد ارتكاز بمعناها التقليدي. وخلال الاجتماع في بيت أبو جهاد بدأنا نحلّل الوضع طبقاً لخبراتنا النظرية التي تعلمناها في الصين، ونلوم القيادة على القصور الذي حدث، وكيف أنهم عملوا بلا معرفة وبلا دراية فيما يخص القواعد الارتكازية. وتدخّل أبو عمار ليقول لنا أنه لا يريد "أكاديميات"، وإن الأرض المحتلة مفتوحة أمامنا، ومَن يُرد التجربة فما عليه إلاّ التحرك إلى هناك بدلاً من الكلام النظري. وكنت أحد الذين قبلوا التحدي وأبديت استعدادي للتحرك إلى الداخل.

التحضير للنزول

في أحد أيام كانون الأول / ديسمبر جاءني أبو عمار وسألني إن كنت أرغب في التوجه إلى بيت لحم قبل عيد الميلاد لضرب خطوط الكهرباء التي تغطي المنطقة، من أجل تعطيل الاحتفال الذي سيرعاه الاحتلال للمرة الأولى. وافقت وبدأت بإعداد دورية لهذا الغرض، وقبل أن أتحرك سافر أبو عمار إلى الخارج، وقيل إنه توجه إلى مصر حيث قابل جمال عبد الناصر الذي وعد بتقديم جميع المساعدة الممكنة إلينا. وكانت دورة من المتطوعين قد ذهبت فعلاً إلى مصر، كما أن السلاح الذي أفرغناه من الطائرة كان الدفعة الأولى من المساعدات المصرية. وفي غياب أبو عمار جاءني أبو صبري، وقال لي إن التعليمات تغيرت، وإن القيادة وافقت على استراتيجيا خط المواجهة، وأنه سيتوجه إلى الأردن ليرئس أركان القوات التي ستكون هناك، وطلب مني مرافقته كي أكون بجانبه في غرفة العمليات التي ستكون في "المَفْرق" بحماية القوات العراقية. وهكذا صرفت مكرهاً النظر عن الذهاب إلى الداخل، وبدأت أعد نفسي للتحرك إلى الأردن.

عاد أبو عمار، فوجدني في بيته في دمشق الذي عُرف بالمركز ٢٧، فشرع يصرخ مؤنباً، لكني أفهمته ماذا جرى. وفي تلك الأثناء جاء أبو صبري، فوبخه على التغيرات التي حدثت بشأني، وسألني إذا كنت لا أزال أود الدخول إلى الوطن المحتل، فأجبته بالإيجاب. وكان الوقت قد فات على المخطط الأصلي لضرب خطوط كهرباء بيت لحم، فطلب مني أن أتحرك

بدورية صغيرة إلى رام الله بعد أن عرف أني أصلاً من هناك، وأن أعمل بشكل طبيعي كأي مواطن من دون أن أثير الشبهات. عدت إلى الهامة واتفقت مع شاب من عرب ٤٨ يعرف العبرية على أن يرافقني إلى رام الله. وتوجهنا بسيارة عسكرية إلى الأردن، فنزلنا في منطقة الحمراء، ثم نقلتنا سيارة عسكرية عراقية إلى "الكرامة". وكنت متحمساً جداً للتوجه إلى الداخل، وكان معنا في السيارة أحد المسؤولين في معسكر الهامة، يدعى أبو الطاهر، وقد أرسلته القيادة لمعرفة أسباب عدم تحرك الدوريات في الكرامة إلى الداخل.

في الكرامة كان نهر الأردن قد بدأ بالفيضان، وأصبح عبوره على الأقدام ـ كما كانت الحال في السابق ـ مستحيلاً، فسرعة التيار كانت كبيرة، وكي نتمكن من اجتيازه فإننا سنحتاج إلى تجهيزات. طلب أبو الطاهر من الجميع مغادرة الكرامة والعودة معه إلى الهامة، وقد أثار هذا غضب أبو عمار، فجمع كل مَن عاد، وكنت معهم (مع أنني عدت مرغماً)، وبدأ يوبخ الجميع ويتهمهم بالجبن. وبعد يومين عدت ثانية إلى الكرامة، وكان معنا قارب قديم يتسع لشخصين وهذا لا يفي بالغرض، فبحثنا عن سبّاح، ووجدنا واحداً في مخيم الكرامة على استعداد لأن يقطع النهر سباحة ويمد حبلاً بين الضفتين لنتمكن من العبور معه واحداً واحداً. كُنّا ثمانية أشخاص نتحرك كمجموعة واحدة ونتفرق في الداخل، كل إلى مقصده. وفعلاً عبرنا كلنا، وتوجهنا إلى قمة "الكتر"، وهي الحافة العليا من الوادي على بعد نحو ١٠٠ متر من مجرى النهر. وكان الطقس ماطراً فوصلنا إلى القمة بصعوبة، وما كدنا نصل حتى اشتبكنا مع كمين للعدو بدأ يطلق النار علينا. استمر الاشتباك نحو ربع ساعة، وفي تلك الأثناء انسحب معظم أفراد الدورية، ولم يبق معي سوى اثنين هما أصلاً ليسا من مجموعتي.

عدنا إلى النهر، وجاءت الإمدادات التي نقلتنا إلى الضفة الشرقية في الصباح، ومن هناك تحركت إلى الهامة وقدمت تقريري. ولم يصخب أبو عمار كعادته، وإنما بدا متفهماً، وخصوصاً أننا حاولنا العبور واشتبكنا مع كمين للعدو. وبينما نحن في الهامة عادت دورية من الأردن أفرادها من الذين تدربوا في مصر، وكانت مهمتها ضرب ميناء إيلات، بناء على طلب مصر، لكنها عادت من دون أن تفعل شيئاً، فثار أبو عمار غضباً واحتجز أفرادها في سجن صغير في معسكر الهامة، وقرر أن ينزل بنفسه لتنفيذ العملية. وبعد أيام طلب مني أبو عمار الاستعداد ثانية. وفي الليل جاءت سيارة عسكرية لتنقلنا ثانية إلى الأردن، وكان معنا هذه المرة أبو عمار نفسه، وتوجهنا إلى الحمراء ومنها إلى الكرامة. أمّا أبو عمار فتوجه إلى الجنوب ومعه مجموعة كبيرة، ومن هناك توجهوا إلى إيلات وضربوا الميناء ومحولات الكهرباء القريبة من الميناء، ثم عاد ومَن معه إلى الكرامة.

الكرامة والداخل

هطلت الثلوج على المرتفعات، ففاض نهر الأردن تماماً، حتى وصلت المياه إلى حافة "الكتر" في الضفتين، ولم يعد في استطاعة أحد العبور، فمكثنا في الكرامة وأقام أبو عمار لنفسه مركزاً في المخيم عُرف بقاعدة القيادة. أمّا أنا فانتقلت إلى بيت ريفي صغير وبدأت بتشكيل دورية صغيرة للنزول ثانية، وقد تشكلت الدورية من ثمانية أفراد مكثوا معي في البيت / القاعدة، إلى أن تتهيأ الأوضاع للنزول. وفي أحد الأيام قال لي عضو في الدورية

أنه سبق أن عاد من دورية قبل أسابيع، عبر العبور على هيكل جسر عسكري يصل بين الضفتين، يعرف باسم جسر "أم الشرط"، فذهبت مع بعض أعضاء الدورية ليلاً لاستكشاف الجسر، وتمكنا من العبور ونحن نتسلق هيكله المعدني، ذلك بأن أرضيته لم تكن موجودة. وصلنا إلى الضفة الغربية بسهولة، وبعد أن مكثنا بعض الوقت نستكشف المنطقة، عدنا ثانية إلى الكرامة، وذهبت إلى قاعدة القيادة وقابلت أبو عمار وأخبرته عن الجسر، فرحب بفكرة عبورنا عليه.

وفي اليوم التالي جهزت الدورية وانطلقنا، فمررنا بنقطة للجيش الأردني نسّقنا معها كي لا تطلق النار علينا ونحن نعبر، لكن بينما نحن في تلك النقطة انطلقت طلقة من بندقية أحد أفراد الدورية، ورأينا أضواء آليات العدو تتجه إلى المنطقة، فعدنا أدراجنا إلى الكرامة على أمل المحاولة ثانية بعد أيام. إلاّ إننا لم نكرر المحاولة، لأنه في الصباح جاءني فتى أرسله أبو عمار، ومعه جهاز لاسلكي، وقال لي إن الكرامة مشتعلة بالتظاهرات لأن الاستخبارات الأردنية أرسلت تعزيزات إلى مخفر الشرطة هناك ضمن مخطط لإخراجنا، فاتصلت بالقيادة، وفهمت منها أن مهمتي هي حماية التظاهرة كي لا يطلقوا النار عليها. توجهت إلى المخفر، وكان المتظاهرون يحيطون به، والتقيت بقائد المخفر، وهو رائد من أصل فلسطيني، وأرسلت عبره تهديداً إلى التعزيزات التي جاءت في الليل، بأننا سنقصف المخفر على مَن فيه إذا لم يغادروا خلال عشر دقائق، وأفهمته أن المتظاهرين تحت حمايتنا. خرج قائد المخفر ورأى أننا مدججون بالسلاح، فعاد إلى الداخل، وخلال أقل من عشر دقائق أُخلي المخفر.

بعد أن انتهت الأزمة توجهت إلى قاعدة القيادة، وكانت الأخبار قد وصلت أبو عمار عمّا فعلت، فرأيته مبتسماً ابتسامة عريضة تغطي وجهه، وقال لي: "بتهدد يا أبو محمد؟" وكان اسم أبو محمد هو لقبي في الصين، فابتسمت، وضحك هو، وقال لي إن مجموعة ستأتي في الغد تحمل معها قارب "زودياك" بلا محرك، والقارب يتسع لسبعة أشخاص دفعة واحدة، وأننا سنعبر بواسطته فلا حاجة إلى إعادة محاولة العبور عن طريق جسر "أم الشرط". وفعلاً وصل القارب، وفي اليوم التالي استُدعيت لتجهيز نفسي، وكانت هذه آخر مرة أرى فيها أبو عمار لمدة طويلة، إذ عبرنا في المساء، وبعد أن مكثت شهراً في الداخل أُسرت في آذار / مارس ١٩٦٨، وخرجت بعد ١٢ عاماً بعملية تبادل أسرى تمت في قبرص في شباط / فبراير ١٩٨٠، وبعد يومين توجهنا إلى بيروت حيث قابلت أبو عمار ثانية بعد غياب طويل. ■